إضاءات نقدية (فصلية محكمة)
السنة التاسعة – العدد السادس والثلاثون – شتاء ١٣٩٨ش /كانون الأول ٢٠١٩م
صص ١١٠ ـ ٨٥

دراسة آليات الإقناع والحجاج فى رسائل الإمام على(ع) فى نهج‌البلاغة (الرّسالة الخامسة والأربعون نموذجاً)

مهدى عابدى*

الملخّص

الإقناع كان ومازال من أفضل الوسائل تأثيراً على الآخرين، وهو آلةٌ بيانية فاعلة لتحقيق التأثير فى المتلقّى، والمحور الرّئيس فى إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين المتكلّم والمتلقّى عبر وسائل الإقناع والإثارة، والحجاج ميزةٌ من ميزات هذا التخاطب (الشفوية والكتابية). هذه الدّراسة تكشف عن جانب بسيط من العملية الإقناعية فى كلام خطيب كان له الحظّ الأوفر فى هذه الصّناعة، لأنّ رسائل الإمام على (عليه السّلام) مادّة غزيرة بشكلها ومضمونها وتكامل مجموعة العلاقات فيها، وتنظّم النصّ ككلّ منسجم متلائم. قد تناولت هذه الدّراسة موضوع الحجاج والإقناع فى رسالة الإمام على (ع) إلى عثمان بن حنيف الأنصارى (كعامله الحكومى) وتحاول أن تقوم بدراسة كيفية استخدام آليات الإقناع ووسائله فى بناء الرّسالة بمنهج وصفى– تحليلى. ومن نتائج هذه الدّراسة أنها تهدف إلى إيجاد نظرة عميقة لمتلقّى رسالة الإمام وتقدّمه رؤية طرية؛ هذه الرّسالة تقوم على الطّابع الحجاجى والإمام يحاول من خلالها تنفيذ أغراضه عبر الإقناع والتأثير وكلامه البليغ مزوّدٌ بأساليب متنوّعة وكذلك يتحدّث المرسل عن نفسه تارةً يمتدحها وأخرى يؤنّبها، وذلك وفق الإستراتيجية التضامنية، وتعدّ إحدى استراتيجيات التّخاطب أن يتضامن المتكلّم مع المخاطب فى حالة التنازل عن سلطته فى التخاطب ويعتمد المرسل فى صوره التشبيهية على الهيئات المختلفة، ما يجعل المتلقّى فى رقابة دائمة مع النصّ من أجل اكتشاف الخيوط المشتركة بين هذه الصّور.

الكلمات الدليلية: الإقناع، الإمام على (ع)، الحجاج، عثمان بن حنيف، رسالة ٤٥ من نهج البلاغة.

*. أستاذ مساعد فى اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان، أصفهان، إيران
mehdiabedi1359@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٦/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٨/٩/٢٧ش

المقدّمة

يشتمل النّشاط البشرى على مستوى محدّد من الإقناع، وهذا المستوى مختلفٌ نظراً للزّمان والمكان المعيش، ففى العصور الإسلامية الأولى وبعدها بعدّة قرون، كانت الخطابة والعملية الإقناعية المنطوية فيها، الشّرط الأساس لاستمرار الحياة وحثّ الجنود وسدّ الثغور؛ لذلک تتأتّى هذه الأهمّية البالغة بالكلام وصقله وتعلّم ما فيه من عناصر الإجادة. فقد حلّل العلماء نواته ولكنّهم لم يفهموا أنّ الإقناع ليس أداة نستخدمها اختيارياً، بل إنّها أداة لابدّ لنا من استخدامها من أجل البقاء، الإقناع جوهر الحياة وهو الوسيلة لإقناع أنفسنا ومن حولنا. وإنّ كلام أميرالمؤمنين (ع) منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين وكتاب "نهج البلاغة" وخاصّةً رسائله، من أعرق النّصوص العربية وأفصحها، أمّا بالنسبة لآلية الإقناع، فإنّ الإمام فى رسائله انبنى بناءً تبليغياً مؤسّساً وفقاً لمقدّمات خطابية تواصلية.

منهج البحث

سلک الباحث فى بحثه المنهج الوصفى- التحليلى، لتحليل وسائل الإقناع وآلياته فى الرّسالة الآنفة للذّكر وفقاً لنظريات بعض اللّسانيين الجُدد.

أسئلة البحث

- ما هى الأساليب الحجاجية التى اتّخذها الإمام فى رسالته إلى عثمان بن حنيف؟
- إلى أى مدىً كان الإمام(كمرسل) ناجحاً فى العملية التواصلية مع عثمان بن حنيف كعامله الحكومى (المتلقّى)؟
- لماذا أكثر الإمام من استخدام الصّور الفنّية والتشبيهات والاستعارات فى هذه الرّسالة؟

خلفية البحث

تسبق هذه الدّراسة المقتضبة، دراساتٌ عديدة فى مجال الإقناع وأساليبه، أهمّها هذه

الدّراسات:

- حمدان، خالد حسين (٢٠٠٥م)، "الإقناع أسسه وأهدافه فی ضوء أسلوب القرآن الكريم"، دراسة وصفية تحليلية؛ يستهدف هذا البحث العقل الإنسانی باعتباره المنحة الإلهية التی كرّم الله بها الإنسان على غيره من المخلوقات، لأنّ طرق ووسائل الإقناع يجب أن توظّف لتأصيل العلاقة بين الإنسان وربّه.
- السبعاوی، طه عبدالله (٢٠٠٧م)، "أساليب الإقناع فی المنظور الإسلامی"؛ كتاب تناول الإقناع من المنظور الإسلامی وأسلوب القرآن فی الإقناع، كما تناول أسلوب الاقناع العلمی وأنواعه وكلّ ما يتعلّق به مع الأمثلة الدالّة والموضّحة ممّا يسهل على القارئ الفهم والاستيعاب.

ونوقشت وشرحت رسائل الإمام سابقاً كما درست خطبه و رسائله وحكمه فی نهج البلاغة خطابياً وتداولياً، على سبيل المثال:

- الزّبيدی، جبّار (٢٠١٧م)؛"رسائل الإمام على (ع) فی نهج البلاغة دراسةً حجاجيةً"؛ هدف الباحث من وراء هذه الدّراسة الحجاجية لرسائل الإمام على (ع) عن الآليات الحجاجية الموظّفة من قبل الإمام على (ع) لتدعيم قضيته، وإيصال أفكاره، وتفنيد خطب خصمه بكونها تفاعلاً خطابياً قائماً على الادّعاء والاعتراض فی وجه مهمّ من وجوهها.
- الخزاعی، عمّار حسن (٢٠١٧م). "الخصائص الأسلوبية فی كتاب الإمام على (ع) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف"؛ قدّم الدارس فی هذا الكتاب رؤية أسلوبية فی رسالة الإمام على (ع) إلى عامله بالبصرة ويأخذ بمعطيات علم اللّغة والظواهر الأسلوبية بمستوياتها الثلاثة وهی المستوى الصوتی والتركيبی والدلالی فی هذه الرسالة.
- وهناک أطروحات جامعية ومقالات مرتبطة ببحثنا هذا، مثل:
- فضيلة، ماضوی (٢٠١٥م)، "الإقناعية وآليات الحجاج فی خطب الإمام على ابن أبی طالب (ع)، دراسة تداولية"؛ درست الكاتبة اللّغة غاية ووسيلة فی خطب الإمام(ع) وفق مناهج عدّة على رأسها التداولية التی تعدّ أحدث فروع

العلــوم اللّغوية تعنى بتحليل عمليات الكلام والكتابة ووصف وظائف الأقوال اللّغوية معتمدةً فى ذلک على أهمّ قضاياها المتمثّلة فى أفعال الكلام، الملفوظية، الحجاج والسّياق وغيرها.

- مقالة لكاتب السّــطور(٢٠١٧م)، "آليات الإقناع فى خطب الحجّاج بن يوسف الثقفى(دراسة نقدية تحليلية)"؛ دُرست فيها عناصر الخطابة فى خطب حجّاج بن يوسف الثقفى مستندةً على الدّراسات النقدية الاجتماعية الحديثة.
- مقالة لكاتب السّطور(٢٠١٩م)،"دراســة أســاليب الإقناع فى رســائل الإمام على(ع) (نموذجاً الرســالة الثامنة والعشــرين من نهج البلاغة)" دُرســت فيها أساليب الإقناع وآلياته حسب مناهج الألسنية الحديثة.

لكن الدّراســات السّابقة فى رســائل الإمام وإن كانت فى مجال الإقناع والحجاج، انتهجت تطبيقاً لبعض رســائل الإمام كنماذج ولكن رسالة الإمام إلى عامله الحكومى، عثمان بن حنيف (رســالة ٤٥ من نهج البلاغــة)، لا تدرس بمفردها تحت إطار نظريات الإقناع والحجاج، فلهذا قمنا بشرح هذه الرّسالة تطبيقياً من جانبها الإقناعى والحجاجى لعرض جانب آخر من بلاغة الإمام وأسلوبه الفريد فى الردّ والجواب.

التمهيد

الإقناع مصطلحاً

يشــكّل الإقناع ركيزة مهمّة من ركائز العمل الرّســالى الذى يهدف إلى التأثير فى تكوين الرّأى العامّ وتغيير المعتقد والموقف و السّــلوک. ومعرفة الأساليب والطّرق التى تؤدّى إلى الإقناع ضرورية فى الحقول المختلفة لمن يقصد استمالة الجماهير واستقطابهم وعملية الإقناع تبدأ من الفكرة وطريقة التعبير عنها وأســلوب نقلها والرّبط بين الفكرة والتعبير عنها وكيفية نقلها. والإقناع مصطلحاً: «فعلٌ مؤثر فى الرّأى أو فى وجهة النظر، إذ يتمّ عن طريق المناقشات أو التفسيرات.» (شمال حسن، ٢٠٠٦م: ٣٠) هذا التعريف كما هو معلوم، يركّز على التأثير فى الآخر؛ وذلک عن طريق تغيير رأيه أو موقفه ويدلّ على قدرة التأثير فى الآخر، أو القدرة على استمالة الآخر؛ وذلک لحمله على الاعتقاد

بمعتقد ما، أو لحمله على استصدار نمط سلوكي معين، وهذا يقتضى بطبيعة الحال، أن يكون المرسل متمتّعاً بهذه القدرة، لكي يتمكّن من إحداث التأثير المطلوب. لذلك نرى أنّ الإقناع والتأثير ممارسة بين طرفين أحدهما يريد التأثير فى الآخر.

وكذلك يعرّف الإقناع بأنّه: «أى اتصال مكتوب أو شفوى أو سمعى أو بصرى يهدف بشكل محدّد إلى التأثير على الاتجاهات والاعتقادات أو السّلوك. كما أنّه القوّة التى تستخدم لتجعل شخصاً يقوم بعمل ما عن طريق النّصح والحجّة والمنطق.» (أبوعرقوب، ٢٠٠٥م: ١٨٩) ويمكن القول بشكل مبسط و شامل بأنّ الإقناع: "فعل متعدّد الأشكال، يسعى لإحداث تأثير أو تغيير معين فى الفرد أو الجماعة". و قد شمل هذا التعريف ثلاث جمل:

- "فعل متعدّد الأشكال": يعنى أنه فعل يتمّ بأكثر من شكل وإن كانت الفكرة الأساسية أو الأسلوب واحداً. وباعتبار الأسلوب يكون بالإقناع بالحجّة أو بالتأثير فى العاطفة وباعتبار الوضوح يكون مباشراً وغير مباشر.
- "يسعى لإحداث تأثير أو تغيير معين": ويعنى هذا أن الإقناع يسعى للتأثير فى الآخر بشكل عام أو جزئى؛ سواء كان فى الفكر والسّلوك أو فى أحدهما.
- "فى الفرد أو الجماعة": ويعنى أنّ ممارسة الإقناع والتأثير قد يكون موجّهاً إلى فرد بعينه كما فى الدّعوة الفردية وكما بين الزّوجين أو الوالدين لأحد أبنائهما أو تكون موجّهة إلى مجموعة تمثل مجتمعاً نوعياً كمجتمع التجّار. ولكى يحدث الإقناع، لابدَّ من تقديم عدد من الحجج والأدلّة والشواهد، التى تثبت صحّة القضية التى أرادها المتكلّم.

والحجاج كالإقناع عملية عقلية تعتمد مبدأ استمالة الآخر وتغيير مواقفه العامّة إزاء الأشياء المادّية والفكرية والحجاج هو تقديم الحجج والأدلّة المؤدّية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثّل فى إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثّل الحجاج فى إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التى تستنتج منها.

الرّوابط والعوامل الحجاجية

لما كانت للّغة وظيفة حجاجية، وكانت التسلسلات الخطابية محدّدة بواسطة بنية الأقوال اللّغوية وبواسطة العناصر والموادّ التى تمّ تشغيلها، فقد اشتملت اللّغات الطّبيعية على مؤشّرات لغوية خاصّة بالحجاج. فاللّغة العربية، مثلاً تشتمل على عدد كبير من الرّوابط والعوامل الحجاجية التى لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية. نذكر من هذه الأدوات: لكن، بل، إذن، حتى، لاسيما،إذ، لأن، بما أن... إلخ. وينبغى أن نميز بين صنفين من المؤشّرات والأدوات الحجاجية: الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، فالرّوابط تربط بين قولين، أو بين حجّتين على الأصحّ (أو أكثر)، وتسند لكلّ قول دوراً محدّداً داخل الاستراتيجية الحجاجية العامّة. ويمكن التمثيل للرّوابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، لأن، بما أن ، إذ....

أمّا العوامل الحجاجية، فهى لاتربط بين متغيرات حجاجية أى بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة حجج، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التى تكون لقولٍ ما وتضمّ مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلاً، كثيراً، ما...إلا... على هذا الأساس وبعد تمييز الرّوابط والعوامل الحجاجية، تُقسم هذه الروابط والعوامل كالآتى؛ فللرّوابط الحجاجية عدّة أنواع:

١. روابط التعارض الحجاجى (بل، لكن، مع ذلك) ؛ هى من الأدوات التى حدّدها النحويون العرب لنفى كلام واثبات غيره.

٢. روابط التّساوق الحجاجى (حتّى، لاسيما)؛ يكتسب هذه الروابط أهمّيتها من علاقتها الواضحة والقوية مع المعنى الضمنى والمضمر، إذ أن دورها لا يقتصر على إضافة معلومة جديدة إلى سياق الجملة.

٣. روابط التعليل الحجاجى (لأنّ، لام التعليل، كى) هذه الروابط من أهمّ ألفاظ التعليل والتفسير وهى إلى جانب هذا تستعمل لتبرير الفعل كما تستعمل لتبرير عدمه.

٤. روابط العطف الحجاجى (الواو، والفاء، وثُمَّ)؛ مجموعة من الحروف تضطلع ببعد حجاجى مهم من خلال ربطهما بين الحجج والنتائج والتنسيق بينهما من أجل التعليل والتفسير والتبرير. (راجع: الزّبيدى، ٢٠١٧م: ١٠٧-١٠٨)

أمّـا العوامل الحجاجية فهى لا تربط بـين متغيرات حجاجية (أى بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة حجج) «لكنّها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التى تكون لقولٍ مـا، مثل: ربّمـا، تقريباً، كاد، قليلاً و كثيراً، ما... وإلّا وجـّل أدوات القصر.» (العزاوى، ٢٠١٠م: ٦٣) والعوامـل الحجاجية تقوم بوظيفة شـحن الكلام لتؤدّى وظيفة حجاجية تتلائم مع مقاصد المحاجج وفضلاً عن ذلک تؤدّى إلى مسـاعدة المتلقّى فى تحديد دلالة المـراد من الكلام. وثمة فارق هامّ بين الرّوابط والعوامل الحجاجية؛ فالعامل الحجاجى هو الذى يربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل اللغوى نفسـه، أمّا الرابط الحجاجى فهو يربط بين فعلين لغويين.

الفكرة الأساس لهذه الرّسالة

تتمحور هذه الرّسالة على فكرة «الزّهد فى الدنيا.» يعاتب الإمام عثمان بن حنيف الأنصـارى، وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دُعى إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليهـا ثم يتّجه(ع) إلى ما يحثّ المخاطب على الزّهـد والقناعة، فيعرض أولاً صورة من حياتـه(ع) وما ابتنـت عليه من زهد وقناعـة. ثمّ يقوم بتبين ضرورة مشـاركة الفقراء والمسـاكين فى"جشـوبة العيش" وصعوبته. ثمّ يعمد إلى عرض صورة من إعراضه عن الدّنيا وتشـوّقه إلى الله تعالى. (پروينى؛ ١٤٣٥ق: ٩) كما أنّ هذه الرّسـالة كشفت عن قيمة عثمان بن حنيف المميزة بالنّسبة للإمام(ع)؛ «فهو وبّخه بعنف وبشدّة لمجرّد استجابته لوليمة دُعى لها الأغنياء دون الفقراء، وهذا بحدّ ذاته يكشـف عن المقام السّامى لعثمان بن حنيف الذى لم يناسبه ذلک الفعل.» (الخزاعى،٢٠١٧م: ١٠٣)

آليات الإقناع ووسائله فى رسالة ٤٥ من نهج البلاغة

روابط التعارض الحجاجى

الرّابط الحجاجى (لكن)

وهـى مـن الأدوات التى حدّدهـا النحويون العرب لنفـى كلام واثبات غيره وهو «حرف اسـتدراک، ومعنى الاسـتدراک أن تنسـب حكماً لاسمها يخالف المحكوم عليه

قبلها، كأنّک لما أخبرت عن الأوّل بخبر خفت أن يتوهّم من الثانی مثل ذلک فتداركت بخبره إن سلباً وإن إيجاباً...ولاتقع لكن إلّا بين متنافيين بوجه ما...ومن هذا المنطلق فإنّ هــذه الأداة تقيم علاقة ربط بين قولين متناقضين أو متنافيين هو من الناحية الحجاجية ربط حجاجی تداولی بين المعطى والنتيجة.» (المرادی، ۱۹۹۲م: ۵۹۱)

لو أخذنا مثالاً لذلک فی هذه الرّسالة لمثّلنا قوله عليه السّلام:

«وَلَوْ شِــئْتُ لاَهْتَدَيتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَــلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَــذَا الْقَزِّ، وَلكِن هَيهَاتَ أَنْ يغْلِبَنِی هَوَای، وَيقُودَنِی جَشَــعِی إِلَــى تَخَيرِ الْأَطْعِمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَــازِ أَوْ بِالْيَمَامَــةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِی الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّــبَعِ! أَوَ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِی بُطُونٌ غَرْثَی، وَأَكْبَادٌ حَرَّی.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

نلاحظ أنّ الرّابط الحجاجی(لكن) قد عمل تعارضاً حجاجياً بين ما تقدّمه وما تأخّر عنه، فی بداية الأمر يشــير الإمام إلى أنّه يقدر على الثّراء وترف العيش ويســتطيع أن يتمتّع بلذائذ الدّنيا وحُطامها، ثمّ فی القسم الثانی من الكلام يشير إلى زهده ومواساته الفقر ويربط هذين الجملتين بلكن الإستدراكية وبما أنّ القسم الثانی يأتی بنتيجة مضادّة للأوّل، فهو أقوى من الحجّة الأولى. فی هذه العبارة أتى المتكلّم حرف الاستدراک فی ســياق "لو" وبذلک يكون ما قبل (لكن) منفی؛ لأنّ (لو) تدلّ على امتناع الشّئ لامتناع غــيره وهنا تدلّ على أنّ المشــيئة ممتنعة فی المعنى، فلمّــا قيل«ولكن هيهات أن يغلبنی هوای...» علم إثبات ما فهم إثباته وهو ســبب (الزّهد ومواســاة الفقراء) الذی يقتضی نفی المشــيئة فيصبح المعنى (ولكنّی لم أشأ اهتداء الطريق إلى مصفّى العسل...) وبذلک يكــون مــا قبل (لكن) منفی وما أحدثه الرّابط إنّما هو الإســتدراک وهو رفع ما يتوهّم ثبوته.

روابط التّساوق الحجاجی:

الرّابط الحجاجی (حتّی):

يبرز الرّابط الحجاجی (حتّی) كمؤشر حجاجی بارز فی رسائل الإمام (ع) ويكتسب هــذا الرّابط أهميته من علاقتــه الواضحة الوطيدة مع المعنى الضّمنــی والمضمر؛ إذ أنّ

دورها لا يقتصر على إضافة معلومة جديدة إلى سياق الجملة كما لو نقول (جاء زيدٌ) فتكون (حتى زيد جاء) إذا كان مجئ زيد غيرمتوقّع، بل «إنّ دور هذا الرابط يتمثّل فى إدراج حجّة جديدة تردف الحجّة التى تسبقها وتساوقها والحجّتان تخدمان نتيجة واحدة، لكن بدرجات متفاوتة من حيث القوّة الحجاجية.» (العزاوى، ٢٠١٠م: ٢٧)

والإمام فى شطرٍ من هذه الرّسالة هكذا يسطر:

«وَاللَّهِ لَو تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَينِ حَبِّ الْحَصِيدِ طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَّبَ الْكَرَى عَلَيهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا الرّابط (حتّى) يأتى لتبين نتيجة وسبباً لما قبله؛ فإنّ القول المشتمل على (حتّى) يكون أقوى ممّا قبله وربما يأتى (حتّى) بمعنى كى التعليلية:

الف: سَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ.

ب: حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَينِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

فجملة (ألف) يمكن أن نعدّه حجّة وجملة (ب) يكون نتيجةً لما قبلها.

موضوع هذا النصّ المختار بيان مدى القوّة الإيمانية التى يتمتّع بها المرسل وكذلك الثّبات ورباطة الجأش على الموقف السّليم وإن عارضت العرب بأسرها، «فإنّه عازم على تطهير الأرض من معاوية بن أبى سفيان وهذا الأمر يستلزم من المستقبل كذلك الثبات على مواقفه حتى وإن تفرّقت عنه الناس فيما إذا لم يجب الولائم التى تكون خاصّة بالأغنياء دون الفقراء، فإنّ عليه الالتزام بما يمليه عليه الواجبُ الشرعى الذى يتطلّب مراعاة كافة فئات المجتمع.» (الخزاعى، ٢٠١٧م: ٦٧) والإمام فى مقام إتاحة الفرصة له، فإنه لا يهدأ إلا بعد أن يطهّر الأرض من معاوية ويبين حقيقته ومعدنه الفاسد إذ هو كقطعة طين بين حبّ القمح حتّى يخرجه من تلوّنه بلون الصالحين؛ إذ هو كقطعة طين يابسة متخفية بين حبّ القمح الكثير.

الموجّهات الحجاجية

الموجّهات اللّغوية محمّلة بطاقة حجاجية، يتمّ استثمارها من قبل المتكلّم فتكون قادرةً على توجيه الملفوظ تبعاً لمقصديات الكلام ومتطلّبات التلقّى«ورسائل الإمام قد اصطبغت بمجموعة من الموجّهات الحجاجية التى تحقّق الإقناع والتأثير ومن ثمّ توجيه المتلقّى نحو فعل ما أو تركه(الإقناع أو الإذعان).» (الزبيدى، ٢٠١٧م: ١٥١-١٥٢) وهذه الموجّهات إمّا يقينية كأدوات القصر والتوكيد وأفعال اليقين و...وإمّا تقريبية أو موجّهات الشكّ بألفاظ مثل: يبدو، كأنّ، زعم، لعلّ وظنّ... وهذه العوامل الحجاجية وغيرها من شأنها أن تجعل الملفوظ ذا سمة ذاتية من خلال الإعلان عن حضور صاحبه فيه حضوراً بارزاً للعيان تكسبه صبغة موضوعية. (صولة، ٢٠٠٧م: ٣١٧)

الموجّهات اليقينية

الف- القسم

يعدّ القسم صنفاً من أصناف الفعل الكلامى التى توجّه القول توجيهاً يقينياً اثباتياً يلجأ إليه المتكلّم لتوكيد كلامه؛ فهو إذ يثبت القضية ويوجبها يقيم فى الوقت نفسه الحجّة على المخاطب ويلزمه بها وفى ذلک يقول أبوالقاسم القشيرى: «إنّ الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيدها وذلک أنّ الحكم يفصل بأثنين: إمّا بالشهادة وإمّا بالقسم فذكر تعالى فى كتابه النوعين حتى لا تبقى لهم حجّة.» (السيوطى، ٢٠٠٦م ، ٢: ١٣٣)

كما تكشف الملفوظات المؤكّدة بالقسَم صورتين متعارضين يمكن استخلاصهما من مجمل رسائل الإمام حيث تزيد درجة إثبات الدّعوى بارتفاع درجة الإنكار وتطابق الجمل أنماط مقامية مختلفة، «تتمايز بموقف المخاطب من فحوى القضية انطلاقاً من مجرّد التردّد فى قبول هذا الفحوى إلى الإنكار التامّ؛ فكلّما ازداد الإنكار احتيج إلى مضاعفة التّوكيد.» (المتوكّل، ١٩٩٥م: ١٨٨) ويتجلّى ذلک الظّهور للدّعوى فى أنماط بُنيوية متباينة وذلک حتّى تكون منسجمة ومطابقة مقامية متمايزة، أشهرها:

الف- الطّبقة المقامية الأولى

وهى الطّبقة التى يكون فيها المخاطب جاهلاً بالمعلومة التى يقصد المتكلّم إعطاءه

إياها أو يعتبر المتكلّم أنّ المخاطب يجهلها أى إنّ المعلومة المقدّمة لا تدخل فى القاسم الإخبارى المشترک بين المتكلّم والمخاطب. (المصدر نفسه:٢٩) وتمثّل العبارات التالية هذه الطّبقة:

- **وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيتُ عَنْهَا.**
- **وَاللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصا مَرْئِيا، وَقَالَبا حِسِّيا، لَأَقَمْتُ عَلَيكِ حُدُودَ اللَّهِ.**

فى العبارة الأولى يشير الإمام إلى شجاعته وقوّته والعبارة الثانية كناية عن وقوعهم فى خطر عظيم بحيث لا يمكن الخروج عنه وبعبارة أخرى:«سُدّ عليهم باب الورود والخروج وهو عالم القبر وما بعده من الموارد» (مفتاح، ١٩٩٠م: ٣٥٧) وبعد أن خاطب الإمام الدّنيا أتى بجواب القسم فى النمط الطّلبى التى يجهلها المخاطب بالنّسبة للمتكلّم، لذلک يلجأ الأخير إلى إثباتها والسّعى إلى حصول اليقين والإطمئنان بيقينها فى ذهن المتلقّى وكأنّ المتكلّم يدفع بالمخاطب إلى الوثوق بكلامه حين يقدّم له معلومة يجهلها فيعمل (المتكلّم) على تأكيدها بأعلى درجات الإثبات.

ب- الطّبقة المقامية الثانية

هى الطّبقة المقامية التى يتوفّر فيها المخاطب على المعلومة التى يعدّها المتكلّم معلومة غير واردة ويعمل المتكلّم على تصحيحها للمخاطب وتمثّلها الفقرة التالية:

«**فَوَاللَّهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي، وَايمُ اللَّهِ - يمينا أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِياضَةً تَهُشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرَتْ عَلَيهِ مَطْعُوما، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَينِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا استعمل الإمام القسم وأتى بجواب القسم فى نمط الخبر المنفى كى يخاطب الدّنيا و يبعدها عن نفسه قائلاً: لا أجعل نفسى ذليلاً منقاداً للدّنيا حتّى تحقّرنى، ويلجأ إلى القسم، حتى يثبت عدم حرصه على الدّنيا وانقياده إلى ملذّاتها ورغائبها وهو بوصفه هذا يريد أن يقنع المخاطب كى يحذّر من مغريات الدّنيا ومكائدها. «واستعار وصف إسلاس القياد للتسهيل فى متابعة النفس العاقلة للنفس الأمّارة وعدم التشدّد فى

ضبطها باستعمال العقل عن متابعتها.» (الأسدى، ٢٠٠٦م: ٥٥٩) ثمّ استعمل قسماً آخر استثنى فيها بمشيئة الله وجواب القسم تمثّل النمط الخبرى المؤكّد (وايم الله)؛ وهو درَّب نفســه بالجوع واكتفى بقرص وبكى حتى لا يبقى دمع فى عينيه «ومحصّل هذه الكلمات هو اعتياد النّفس بالقرص والمَلح واعتياد العين بالبكاء من خشية الله تعالى.» (مفتاح، ١٩٩٠م: ٣٥٨) فاستدعاء القسم قد ساهم مساهمة فعّالة فى إبراز الوقع الحجاجى؛ لأنّ أثره يكون أشــدّ على المخاطب وأعمق أثراً فيه ممّــا لو كان الجواب عارياً عن مظاهر التّوكيد. من هنا نجد أنّ القســم الحجاجى قــد انتصب على المكوّن الدالّ على المعلومة الجديدة التى يعتقدها المتكلّم نفياً أو إيجاباً.

وأمّا ســبب إتيان المرسِــل بهذه الكمية من المؤكّدات؛ «فلأنّــه فى معرض الحديث عن سمات نفس مثالية اســتطاع صاحبها أن يروّضها، كيفما شاء ويجعلها محكومة به لا محكوماً بها.» (الخزاعى، ٢٠١٧ م: ٦٨) وفى مثال آخر يقول الإمام:

- «**فَوَاللَّهِ مَا كَنَــزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً وَ لاَادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَ لاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِــى ثَوْبِى طِمْــراً. وَ لاَحُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِــبْراً وَ لاَ أَخَذْتُ مِنْــهُ إلا كَقُوتِ أَتَــانِ دَبِرَةٍ وَ لَهِى فِى عَينِــى أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِــرَةٍ فَوَاللَّهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِى، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِى.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

انتظمــت العبارة التى أشــير إليها بخطّ (فى هذه الفقرة) بجــو إيقاعى منتظم وذلك بالتوافق فى البنية التركيبية التى يمكن أن نمثّلها كالتالى:

نفى+ فعل ماضى+ تاء الفاعل+ شبه جملة(جا رو مجرور)+ مضاف إليه+ مفعول به

وهذا التشــاكل التّركيبى منح النصّ إيقاعاً متميزاً شــكّل سمــة تنبيهية للمخاطب، «مهمّتُها لفت الانتباه إلى ما ورد فى النصّ وزيادة التّفاعل التواصلى مع المادّة المرسلة ويستوقف متلقّى الخطاب(ابن حنيف) وينبّهه إلى السنّة التى اتبعها إمامه، فيعرف بذلك مخالفته التى ارتكبها.» (الخزاعى، ٢٠١٧م: ٤١)

إنّ الإمام بعد أن ذكر بأنّهم لا يقدرون على القناعة ويطلب منهم مساعدته ونصرته بورع واجتهاد، أقســم بالله قسماً صادقاً بأنه ما كنز وما جمع الفضّة والذّهب وما ادّخر غنيمة لأهله. من الواضح فى هذا القول أنه يمثّل جواب القسم فى النمط الخبرى المنفى

والقسَـم شكّل نقطة اشـتراک بين طرفی الخطاب وهذا الإجماع ناتجٌ عن العظمة التی يحملها المقسم به التی تبرز عبر هذا العوامل الحجاجية وللمقسم به قوّة فی تحقيق قيمة الكلام التأثيرية. تبين الملفوظات المؤكّدة بالقسـم «محاولة المتكلّم لإقناع الخصم بوسم خطابـه بأعلى درجـات التأكيد ومن ثمّ يصبح للملفوظ درجـة حجاجية عالية.» (ابن خراف، ۲۰۱۰ م: ۲۵۱)

إنّ الإمام بهذه العبارات والحجج المنفية يسـوق على زهده فی الدّنيا والإعراض عـن ملذّاتها؛ كما إنها جاءت مرتّبة ومتدرّجة من الحجّة الأقلّ دلالةً على المدلول إلى الحجّـة الأقوى لتؤوّل بمجملها إلى نتيجة ضمنية. إنّ نفی إحدى الحجج يؤدّی إلى نفی مدلول الخطاب؛ بعبارة أخرى إنّ قوّة النفی تترتب عكسـياً فی السلّم فنقيضُ(ماكنزت مـن دنياكم تبراً) أی إثبات هذا الأمر هو دليل أقـوى من الأدلّة الأخرى على الرّغبة والحرص على الدّنيا. حينما يقول الإمام: ما كنزت من دنياكم تبراً، توؤل إلى النتيجة: الزهـد والإعراض عن الدنيا. و يكنز من الدنيا تبراً تؤوّل إلى النتيجة المضادّة: الرّغبة والحرص على الدنيا. فمادامت الدّنيا فی نظر الإمام لا تساوی عفصة مقرة فكيف يكنز من الدنيا التبر، فتصبح الحجّة (ولهی فی عينی أوهی و أوهن من عفصة مقرة) هی الحجّة الأقوى على زهد الإمام وإعراضه عن الدنيا وملذّاتها.

ب- القصر

من الوسائل اللّغوية التی يلجأ إليها المتكلّم حتى يوجّه خطابه توجيه اثبات. والقصر لغةً الحبس وفی الإصطلاح تخصيص أمر بأمر بأسـلوب معين أی حبسـه عليه وجعله ملازمـاً له. «وهو أداة توكيد وتخصيص وكلّما قويـت الحاجة إليهما كان القصر أبلغ.» (قصاب؛ ۱۹۹۹م: ۱٦۱) وإنّ التوكيد بالقصر هو عمل إنجازی يعتمده المتكلّم فی توجيه المخاطب وجعله يسـير فی الاتجاه الذی يحدّده ويرسمه المتكلّم «وبالنتيجة دفع المتلقی إلى إعمال الاسـتنتاج لديـه. فالأقوال التی تتضمّن هذه العوامـل الحجاجية (أدوات القصـر) فی حقيقتها قائمـة على ثنائية النفی والإثبات من حيث السّـلوک الحجاجی والوجهـة الحجاجية كما إنها تبين التعارض بين المعنى الإخبارى والمعنى الحجاجی.»

(الزبيدى، ۲۰۱۷م: ۱٦۷)

ج- "إنّما"

ذكر الجرجانى أنّ: "إنما" يؤتى بها لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته ولكن لا يعلمه ويقرّ به كما أنها تأتى إثباتاً لما يذكر بعدها وتوكيداً لها (الجرجانى؛۱۹۹۱م: ۳۲۷) ومثال ذلک فى هذه الرّسالة:

-«**إِنَّمَا هِى نَفْسِى أرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِى آمِنَةً يوْمَ الْخَوْفِ الْأكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جوَانِبِ الْمَزْلَقِ.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

إنّ الإمام يذلّل نفسه ويحقّره بسبب التّقوى ويؤكّد كلامه بإنّما؛ لأنّ الإمام يعتقد أنّ رياضة النفس تنفّذ بالتّقوى لا بالتقلّل والتقشّف لتأتى النفس آمنة مطمئنة يوم الفزع الأكبر وتثبت فى مواضع تخشى الزلّة فيها ولاسيما جسر الصّراط، وترويض النّفس بالتقوى هو أن يطهّر الإنسان نفسه من كلّ شائبة كالكذب و الحسد وأن يحلّى ضميره بحبّ الخير للنّاس.

الموجّهات التقريبية

الموجّه التقريبى (ظنّ)

هو أحد طرفى التشبيه بصفة الرّجحان وهو من الأفعال التلميحية التى تفيد«الظنّ فى الظّاهر مع احتماله فى بعض المواضع لليقين.» (الأستراباذى، ۱۹۹٦م: ۱٤۹) فهى أداة تندرج ضمن سلّم قوّة الإعتقاد بين العلم والحسبان، فتكون فى مرتبة دون مرتبة أفعال اليقين ولكن من حيث القوّة الإعتقادية. نجد أنّ اليقين والظنّ متساويان مع خصوصية كلّ منهما واختلافهما فى الاتجاه. فالاتجاه الذى نقصده هو علاقة مضمون الكلام بالخارج أى إمّا باتجاه أقصى اليمين نحو العلم أو باتجاه أقصى اليسار نحو الشكّ؛ فإذا كان العلم يدلّ على اليقين أى اعتقاد جازم فى مطابقة مضمون الكلام لحالة الأشياء فى الكون، فإنّ الظّنّ والحسبان يدلّان على اعتقاد جازم فى انتفاء هذه المطابقة (المبخوت، ۲۰۱۰ م: ٥٤) ومثال "الظنّ" فى هذه الرّسالة:

«أَمَّـا بَعْدُ، يا بْنَ حُنَيف فَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيـةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاکَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيهَا، تُسْتَطَابُ لَکَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ عَليکَ الْجِفَانُ، وَمَاظَنَنْتُ أَنَّکَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيهُمْ مَدْعُوٌّ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنـا يخاطب الإمام عثمان بن حنيف ويوبِّخه بسـبب حضوره فـى مجلس الأغنياء ويتعجّب الإمام ويقول: أنت من المؤمنين فما ظننت بک الإجابة هذه. أمّا "ظنّ" إحدى أدوات الإقنـاع حيـث تقتضى هنا (إنّک تجيب إلى طعام) لكـن الجملة المنفية تقتضى (إنّک لا تجيب إلى طعام قوم...).

أمّـا تأثير النفـى فى مقتضى الفعل "ظنّ" وتحديد المقصود مـن نفى هذا الفعل، وما يؤدّيـه من احتمالات فى التأويل الدّلالى، فنجـد أنّ التحقّق ينقلب بموجب النّفى إلى اقتضاء لعدم التحقّق.

حيـث تقتضى "ظنّ" (هنا على وجه الترجيح) إنک تجيب إلى طعام... لكن الجملة المنفية تقتضى (إنّک لا تجيب إلى طعام قوم)... وهذا الأمر يجعلنا نعود إلى الخلف لبيان صـورة "ظنّ" فـى الإثبات حيث نجدها لا تعين مقتضيـات مفاعيلها من حيث التحقّق وعدم التحقّق، «فالإمام فى هذه المسألة يحمل شكّه شكّاً آخر من أجل التّعبير عن عدم التزامـه بصدق مضمون كلامه، لكى يحقّق مفهوم الالتزام والمطابقة بين الكلام والاعتقاد والخـارج؛ لأنَّ الادلّـة والبراهين السّـلبية الواقعية الملازمة للمخاطـب، ابن حنيف- نسـبية- لا ترقى إلى إثبات فسـاده، أى هناک عدم مطابقة بـين الخارج والإعتقاد.» (الزبيدى، ٢٠١٧ م: ١٧٦-١٧٧)

السُّلّم الحجاجى فى هذه الرّسالة

تتجلّى العلاقة المجازية بين الدّعوى والحجّة، لتصبح علاقة شبه منطقية إلى حدّ ما، وذلک بالرّغم من أنها تتجسّد، بطبيعة الحال، من خلال الأدوات اللّغوية، فيتمثّل صلب فعـل الحجاج فى تدافع الحجج وترتّبها حسـب قوّتها؛ إذ لا يثبت غالباً فى السّـياق. لذلک يرتّب المرسل الحجج التى يرى أنها تتمتّع بالقوّة اللّازمة التى تدعم دعواه. وهذا الترتيب هو ما يسمّى "بالسلّم الحجاجى". ويمكن تعريف السلّم الحجاجى بأنّه: «عبارة

عن مجموعة فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية وله ثلاثة قوانين:

١- قانون الخفض.

٢- قانون تبديل السلّم.

٣- قانون القلب. (الشهرى، ٢٠٠٤م: ٤٩٩-٥٠٠)

ونجد أنّ رسائل الإمام (ع) لاتخلو من تمثّلات لهذا النوع الحجاجى اللّغوى الذى يكشف عن قوّة الحجج وترتيبها فى القول؛ بل لابدّ لكلّ قول بطبيعته أن يخضع لسلّمية وتراتبية معينة فى خدمة النتيجة أو القول بأسره.

يقول الإمام عليه السّلام فى هذا الصّدد:

«**فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً وَلاَادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً. وَلاَحُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إلا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ وَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

ومثلما يصدّق السلّم الحجاجى فى الإثبات، فإنه أيضاً يصدّق فى النّفى، فالإمام يسوق أكثر من دليل على زهده فى الدّنيا والإعراض عن ملذّاتها، حيث نجد أنّ الحجج المستعملة فى هذا المثال هى حجج منفية، كما إنّها جاءت مرتّبة عمودياً ومتدرّجة من الحجّة الأقلّ دلالةً على المدلول إلى الحجّة الأقوى، لتؤوّل بمجملها إلى نتيجة ضمنية هى (الإمام رجلٌ زاهدٌ) ويمكن أن ندرج هذه الأدلّة على زهده بحسب قوّتها فى السلّم الحجاجى بالشّكل التالى:

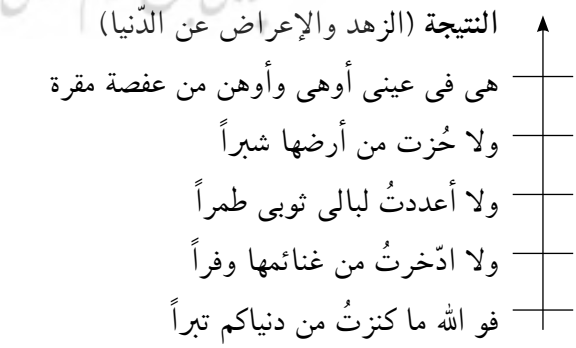

ولــو مثّلنا هــذه الحجج بدون نفى، فإنّه يتغير مجمل الخطــاب؛ فتصبح الحجة الأقلّ مدلولاً فى أســفل السلّم هى الحجّة الأقوى دلالةً على النتيجة المضادّة للنتيجة السّابقة، ويمكن إيضاح هذا الأمر عبر السلّم الحجاجى التالى:

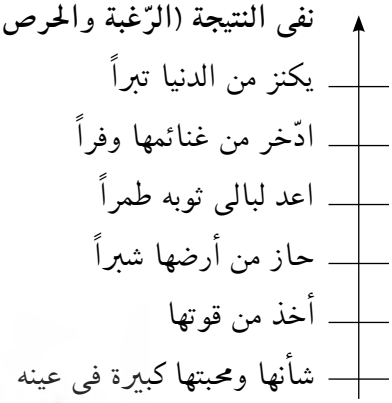

يترتّب على ذلک أنّ نقيض إحدى الأدلّة / الحجج (يؤدّى إلى نفى مدلول الخطاب وهذا ما يســمّى بقانون تبديل السلّم ونتيجة لذلک نتبين أنّ قوة النفى/ النقيض تترتب ترتيباً عكســياً فى الســلّم، فنقيضُ(ما كنزت من دنياكم تبراً) أى إثبات هذا الأمر هو دليل أقوى من كلّ الأدلّة الأخرى على الرّغبة والحرص على الدّنيا.

حجاجية الصّورة الفنّية

اتّفق الدّارســون على أهمية الصّورة الفنّية كحجر الأســاس فى بنــاء العمل الفنّى والتصوير وســيلة من وســائل الدّلالة البليغة التى تتمكّن فــى النفس فيكون لها الأثر العميق فى الإبلاغ والإثارة وهى توظّف لغاية الإقناع والتأثير قبل أن ينحســر دورها وتعتبر الاســتعارات من أساليب التعبير الفعّالة التى نستخدمها لترک انطباعات دائمية حية. يقول الباحث النفســى اللّغوى المشــهور عالمياً ســوزيتيه هاديــن إلجين: «تعتبر الاســتعارات أكثر الوســائل فعالية من أجل تغيير مواقف الأشــخاص بسرعة وفعّالية وبصورة دائمة.» (الشهرى،٢٠٠٤ م: ٤٨٥) وتشكّل الاستعارات الطّريقة التى نفكّر بها،

فهى تشبه هياكل النوافذ التى يصمّمها المعمار ليصل إلى المنظر المطلوب، بل إنّ أطر النوافذ لا تركّز فقط على ما ينظر إليه، «فإنها أيضاً تحدّد ما تستطيع أن تشاهده، لذا فإنّ الاستعارات تعمل بنفس الطّريقة، إذ إنها تركّز على خصائص معينة، بينما تخفى خصائص أخرى.» (المصدر نفسه: ٤٩٥)

والإستعارة لغةً رفع الشئ وتحويله من مكان إلى آخر واصطلاحاً هو علم من علوم البيان وهى مجاز لغوى تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى المشابهة (سارة، ٢٠١٥ م: ٦٢) ومن أمثلة تلك فى هذه الرّسالة يقول الإمام:

«وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَينِ حَبِّ الْحَصِيدِ.» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا يتحدّث الإمام عن خُبث طبع معاوية ووصفه بالمعكوس والمركوس ويعتقد من الواجب أن يطهّر الأرض من هذا الشّخص الخبيث. أراد الإمام من كلمة(معكوس) بأنّ معاوية رجل أوّله كآخره وآخره كأوّله وأراد (بالمركوس) إلى مقام نفاقه يعنى ظاهره، خلاف باطنه وعبّر بالجسم قاصداً أنّه لا يسمّى إنساناً بل جسم من الأجسام كالجمادات والنباتات غير أنه يشرب ويأكل كالإنسان «ومحصّل الكلام؛ خروجه عن مقام الإنسانية.» (النقوى، ١٣٨٣ق: ٣٥٤)

ثمّ فى نهاية الفقرة تعبّر عن لفظين عن طريق الإستعارة وهما "المدرة" و"حبّ الحصيد"؛ استعار لفظ "المدرة" لمعاوية ويكنّى بها عن الكفر ولفظ "حبّ الحصيد" للمؤمنين ويكنّى بها عن الإيمان؛ استوحى هذه الصّورة الفنية ليشبّه معاوية بحجر وشبّه الناس بالحبّ الذى هو ثمرة الزّرع. فوجود معاوية بين المسلمين كالمدرة بين حَبّ الحصيد يوجب الفساد ويضلّ العباد «ووجه المشابهة أنّه مخلص للمؤمنين من وجود معاوية بينهم ليزكّوا إيمانهم ويستقيم دينهم؛ إذ كان وجوده فيهم سبباً عظيماً لفساد عقائدهم وهلاك دينهم كما يفعل أهل البيادر من تصفية الغلال وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره.» (الأسدى، ٢٠٠٦م: ٥٥٧) إنّ هذه الصّورة التى رسمها الإمام يوافق مع المخاطبين، لأنّهم من أصحاب الزّرع والإمام يريد أن يؤثّر فى نفسية المخاطب عن طريق هذه التشبيه

ويؤكّد بأنّ تواجد معاوية بين المسلمين يسبّب فساد عقائدهم وهلاک دينهم. والإمام لجأ إلى أسلوب الكناية الذى يتضمّن خرق المعنى الحرفى والمعجمى للملفوظات لتشكيل صورة تتضمّن خيالاً أوسع «ويحفز المتلقّى إلى البحث عنها ويحاول جاداً اكتشاف ما يقصده المرسل.» (الخزاعى، ٢٠١٧م: ٩٧)

كما أشار أميرالمؤمنين إلى حاله مع الدّنيا(فى هذه الرّسالة) بقوله:

«**إِلَيكِْ عَنى يا دُنيا فَحَبلْكُِ عَلَى غَارِبِكِ.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

فى هذه الفقرة يمثّل الإمام الدّنيا بصورة من يعقل ويخاطبها بخطاب العاقل ليكون ذلک أوقع فى النّفوس وأمرها بالتنحّى والإبتعاد ويكنّى بها عن الطّلاق والترک؛ لأنه شبّه الدنيا بالحيوان الذى حبله على غاربه وهو يذهب حيث يشاء، فقد حرّر الإمام نفسه عن ملذّات الدنيا وشهواتها. ومرّة أخرى شبّهها بالحيوان الذى له مخالب (قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِکِ) «استعارة بالكناية عن كونها كالأسد فى جذبها للإنسان بما فيها من الشّهوات والقينات إلى الهلاک الأبدى كما يجرّ الأسد فريسته.» (الأسدى، ٢٠٠٦م: ٥٥٨)، ثمّ شبّه الدنيا بالصّائد(وَأفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِکِ) و«كنّى بهذا الوصف المستعار عن كونها تصييد قلوب الرّجال بشهواتها الوهمية فهى لها كحبائل الصائد.» (المصدر نفسه) كما أن الصياد يصيد الحيوانات بحبائله، إن الدّنيا تصيد الناس بظواهرها ومغرياتها ويشير الإمام إلى خلاصه ونجاته من الدنيا الدنية. وفى عبارة (وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِى مَدَاحِضِکِ) «استعار لفظ مداحضها لشهواتها وملذّاتها باعتبار كونها مزالق أقدام العقول عن طريق الله ومصارع لها» (المصدر نفسه) والإمام شبّه الدنيا بالأرض الواسعة التى لها مراتع كثيرة خضرة وشبّه نفسه الشريفة بمن يرتع فيها، ومن أمثلة تلک قوله عليه السّلام:

«**إِذَا كَانَ هَـذَا قُوتُ ابْـنِ أَبِى طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ،أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ النَّضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هنا جاء الإمام بأربعة تمثيلات كى تشرح بأنّه ليس علاقة بين القوّة والشّجاعة وأكل الطّيبات من الرزق؛ لأنّهم يعتقدون بضعف الإمام عن قتال الأقران بسبب قوته النزر؛ لذلک يجيبهم بهذه التمثيلات. أوّلاً فى عبارة (إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيةَ أَصْلَبُ عُوداً) يمثّل الإمام

بالشّجرة البرّية ويقاس نفسه عليها فى الشّجاعة والصلابة، كما أنّ الشجرة البرّية تنبت فى الصحراء ولا تتغذّى إلا بماء المطر، لكن عوده أصلب من الشّجرة الأهلية التى تنبت فى المزارع وهى أضعف بالنّسبة للشجرة البرّية؛ إنّ الإمام أيضاً مع قلّة غذاءه يكون أقوى من الآخرين، لأنه يتحمّل فى حياته كثيراً من الصّعوبات خلافاً للذين يعيشون عيشة طيبة وليس لديهم القدرة أمام الصعوبات «والمشترک الجامع بينهما هو قلّة الغذاء وجشوبة المطعم كقلّة غذاء الشجرة البرّية وسوء رعيها والحكم عن ذلک هو صلابة أعضائه وقوّته كصلابة عود الشجرة البرّية وقوّتها.» (الأسدى، ٢٠٠٦ م: ٥٥٦)

وفى عبارة «وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً» تشبيه معاوية وأصحابه بالرّوائع الخضرة وهى الأشجار والأعشاب الغضّة الناعمة الحسنة؛ لأنّهم يعجزون عن المقاومة ولايمكن لهم التجلّد على المصائب ويميلون إلى الدّعة والرّفاهية «والمشترک الجامع بينهما هو الخضرة والنّضارة الحاصلة عن الترف ولين المطعم والحكم اللازم عن ذلک هو رقّة الجلود ولينها والضّعف عن المقاومة وقلّة الصبر على المنازلة والميل إلى الدّعة والرفاهية والغرض أن يعلم كون أقرانه أضعف منه.» (المصدر نفسه: ٥٥٧) وفى النهاية «وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً، وَ أَبْطَأُ خُمُوداً» شبّه الإمام نفسه بالنباتات العذية التى يسقيها ماءُ المطر وبسبب ذلک يكون أقوى على إشعال نار الحرب ويتّصف بالصّبر.

وكذلک فى هذه الفقرة قد أتى الإمام بعدّة مؤكّدات عندما أحسّ بتسرّب الشكّ إلى ذهن المستقبل من أجل أن يستحكم الخبر فى نفسه. «لأنّ وظيفة الخبر تثبيث المعنى فى تلک النفس الرّافضة له؛ فلابدّ أن تكون العبارة ووثاقتها ملائمة لحال النفس، قادرة على الإقناع.» (حسنين موسى، ١٩٨٠م: ٨١)

وبعد ذلک لتأكيد كلامه أى توصيف شجاعته، مثّل الإمام، نفسه أمام رسول الله فى العلم والقدرة والزّهد والحلم والصّبر قائلاً: «**أَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوء**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

«وأصل هذا التمثيل هو الضّوء بالضّوء وفرعه نسبة نفسه من رسول الله وعلّته الجامعة هى كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوّة وكمالاتها كالمعلوم من العلّة.» (الأسدى، ٢٠٠٦م: ٥٥٧)

شكل الصّورة وأبعادها الحجاجية

فــى هذا القســم من المقالة ندرس المنحنــى الحجاجى الذى تؤديــه الصّورة الفنّية انطلاقاً من شــكلها(القالب/الهيكل) الذى يحوى تلك المادّة المســتمدّة أو المستقاة من الواقع الذى تعارف الناس عليه وهذا الشــكل أو البناء التصويرى قد يظهر بأشــكال أسلوبية متعدّدة. ومن أمثلته قوله عليه السّلام إلى عثمان بن حنيف، فى حاله مع الدّنيا وتطلّعه إلى الآخرة:

«**طُوبَى لِنَفْــسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَــهَا، وَهَجَرَتْ فِى اللَّيلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِى مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، تَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

فقولُــه (**عركت بجنبها بؤســها**) كنايــة عن الصّبر علــى نزول المصائــب والبؤس يقال:«عرک فلان بجنبه الأذى، إذا أغضى الطّرف عمّن يؤذيه وصبر على فعله، ويلازم ذلک عدّة فضائل کالحلم والكرم والعفو والصّفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفّة ونحوها.» وقوله (وهجرت فى اللّيل غمضها) كناية عن إحياء النّفس ليلها بعبادة ربّها واشــتغالها بذكره، و"تجافت عن مضاجعهم جنوبهم" كناية، إذ إنّ اجسامهم لم تكن لتســتقرّ على فراشها خوفاً من معادها واشتغالاً بما يصلح آخرتها. هذه الفقرة المصطفاة تعتمد على الشّكل الثانى من أشكال(القالب/الهيكل) الصورة الفنّية الحجاجية أى:

دليل ← **مدلول**

(أ) يجاور (ج) ← **(أ)**

وينطبق هذا الشــكل على الكناية بمختلف أنواعها ســواء كانت كناية عن صفة أو كناية عن موصوف، حيث يجاور المكنّى عنه المكنّى به.

و مثال آخر فى هذه الرّســالة قوله عليه الســلام: «**وَأَنَا مِنْ رَسُولِ الله كالصّنو مِنَ الصّنو وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

هذه الفقرة من رســالة الإمام تعتمد على الشّــكل الثالث من أشكال الصّورة الفنية الحجاجية على النحو التالى:

دليل ← مدلول

(أ، ب)= (ج، د) ← (أ، ب)

وينطبق هذا الشكل على التشبيه التمثيلى الذى يكون قائماً على المشابهة بين البُنى، حيث يمثل العنصر(أ) بالنسبة للعنصر(ب) ما يمثّله العنصر(ج) بالنسبة للعنصر (د) (الزمانى، ٢٠١٢م: ٢٠٤)

فيكون شكل التشبيه على هذا الأساس فى هذا التمثيل كالآتى:

أ. الامام على عليه السلام

ب. رسول الله صلى الله عليه وآله

ج. الصنو/ الذراع

د. الصّنو/ العضد

أى مكانة الإمام (ع) أمام رسول الله (ص) كمنزلة الصّنو من الصّنو أو بمنزلة الذّراع من العضد.

وقد يختلف شكل التمثيل بحسب تعدّد عناصره المذكورة، فقد تكون تلك العناصرأربعة كما فى المثال السابق وقد تكون أكثر من أربعة أو أقلّ، إذ قد يكون انعقاد التشبيه التمثيلى بين عناصر متعدّدة من الجهتين المشبه والمشبه به تزيد على هذا العدد.

و مثال ذلک قوله عليه السّلام: «**وَكَأَنِّ بِقَائِلِكُمْ يقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجعَانِ أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِيةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ النَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خموداً.**» (نهج البلاغة، رسالة ٤٥)

نجد أنّ الشّكل أعلاه قد استجاب إلى الشّكل النموذج بحيث يصبح تشابه العلاقة قائمة على بنيتين هما:

قلّة طعام الامام وجشوبة المطعم.

صلابة أعضاء الامام وقوّته.

(ج): قلّة غذاء الشجرة البرّية وسوء رعيها.

(د): صلابة عُود الشجرة البرّية وقوّتها.

النّضارة والرقّة الحاصلة من ترف ولين مطعم خصوم الإمام وأقرانه كمعاوية .
الضّعف عن المقاومة وقلّة الصّبر على المنازلة والميل الى الدّعة والرّفاهية.
(ج): الرّواتع الخضراء.
(د): رقّة الجلود ولينها.

قلّة طعام الإمام وجشوبة المطعم .
أقوى على سعير نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخموداً.
(ج): النباتات العذية.
(د): بطئ وقدها بالنار وبطئ فتورها وإخمادها.

ففى هذه الفقرة يمنح المرسل حالة الاستقبال وما ينبثق عنها من مستجدّات حال التواصل أهمية بالغة، «فيسعى إلى إطفاء عناصر التشويش التى قد تحدث بسبب كمّية المعلومات الجديدة وغرابتها بأساليب لغوية مضادّة.» (الخزاعى، ٢٠١٧م: ٦٦)

النتيجة

١- إنّ هذه الرّسالة تقوم على الطّابع الحجاجى والإمام يحاول من خلالها تنفيذ أغراضه عبر الإقناع والتأثير؛ على سبيل المثال يعنى الإمام بحروف الربّط والعطف لتوجيه كلامه واستعان بها من أجل التأثير والإقناع والأشكال البيانية أى الاستعارة وغيرها. أمّا بالنسبة لإحصائيات موارد الاستعمال للرّوابط والعوامل الحجاجية، فنرسم الرّسم البيانى لها كالآتى:

وفى دائرة الموجّهات الحجاجية يرسم الرّسم البيانى لها كالآتى:

وكمـا يبـدو أنّ الإمام يكثر من اسـتخدام الموجّهات اليقينية أكثـر من الموجهات التقريبية ولاسـيما القسـم؛ حتى يثبت عـدم حرصه على الدّنيا وانقيـاده إلى ملذّاتها ورغائبها وهو بوصفه هذا يريد أن يقنع المخاطب كى يحذّر من مغريات الدّنيا ومكائدها ووظّف المرسـل أنواع القسـم والتوكيدات، لأنه يحاول اسـتثارة المتلقّى وتحريک كلّ قنواته التواصلية من أجل أن يستحكم كلامه فى خلده وشدّد رباطة جأشه.

٢- فى هذه الرّسـالة أكثر المرسل من أسـاليب البيان ليبتعد بأسلوبه عن التقريرية والمباشـرة؛ مسـتغلاً طاقات هذه الأسـاليب للوصول إلى الإقناع والتأثير فى المتلقّى ولذلک عدل بلفظ عن آخر للتّعبير عن معانٍ ودلالات عميقة. وكذلک استخدم المرسل فى هذه الرّسـالة كثيراً من المفارقـات النّحوية وينتهک النظـام المعيارى للملفوظات وهذه المفارقة تُرشـدنا إلى المفارقة بين فعل المرسل الرّافض للدّنيا وبين فعل المخاطب المخالف لما أراده منه إمامه. وغرض الرّسالة هذه جاء من أجل المأموم ومن أجل بيان مخالفته لإمامه.

٣- أخذ المسـتوى الدّلالى مساحته الرحيبة فى هذه الرّسالة من خلال التشبيهات التى كانت واضحةً فى صورها، قريبةً من الذّهن وكذلک العلاقات التى تربط بين طرفى التشبيه ووجه الشـبه قريب لا يحتاج فى إدراكه إلى تأويل وتفكير وكذلک الإستعارة

التــى لا نكاد نجد فيها صــوراً صعبة تحتاج فى فهمها إلى إعمال الذّهن وكدّها وكذلک الكناية. يعتمد المرســل فى صوره التشبيهية على الهيئات المختلفة، ما يجعل المتلقّى فى رقابة دائمة مع النصّ من أجل اكتشــاف الخيوط المشــتركة بين هذه الصّور. والكناية والتمثيل والتشــبيه فى هذه الرّســالة لم تــأتِ للتزيين وترصيع الــكلام فقط؛ بل ذريعة أساسية لتوجيه المخاطبين وحملهم على الإذعان والاعتراف.

المصادر والمراجع

نهج البلاغة.

ابن خراف، ابتسام. (٢٠١٠م). الخطاب الحجاجى السياسى فى كتاب (الامامة والسياسة) لابن قتيبة، دراسة تداولية. الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

ابن منظور، جمال الدين محمد. (١٤١٤ق). معجم لسان العرب. ط الثالثة. بيروت: دار صادر.

أبوعرقوب، إبراهيم. (٢٠٠٥م). الاتصال الاجتماعى ودوره فى التفاعل الاجتماعى. عمان: مجدلاوى للنشر والتوزيع.

أرسطوطاليس. (١٩٧٩م). الخطابة. الترجمة العربية القديمة، تح. بدوى عبد الرحمن. بيروت: دار القلم.

الأسترآباذى، رضى الدين. (١٩٩٦م). شرح الكافية. ليبيا: منشورات قار تونس.

الأسدى، عادل. (٢٠٠٦م). من بلاغة الإمام على(ع) فى نهج البلاغة. طهران: المحبين.

البحرانــى، كمال الدين بن ميثم بن على. (١٩٩٢م). شــرح نهج البلاغــة. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

بلخير، هشــام. (٢٠١٢م). آليات الإقناع فى الخطاب القرآنى، دراســة حجاجية. مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير فى اللسانيات العامّة (سورة الشعراء نموذجاً). الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

پروينى، خليل. (١٤٣٥م). «الصّورة الفنية فى رســائل الإمام على(ع) (دراســة فى ثلاث رسائل من نهج البلاغة نموذجاً)». طهران: مجلة آفاق الحضارة الإســلامية. الســنة السادسة عشرة. العدد الثانى. صص ٤٨-٢٣

الجاحظ. (١٩٩٥م). البيان والتبيين. تح: عبدالسلام هارون. القاهرة: مطبعة الخانجى.

الجرجانى، عبدالقاهر. (١٩٩١م). دلائل الإعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر. رياض: دارالمدنى.

الحصرى، أبو إسحاق بن على. (١٩٨٦م). زهر الآداب وثمر الألباب. تح. محمد محى الدين عبد الحميد. بيروت: دار الجيل.

دياس، محمد راشد. (١٩٩٩م). الحوار والإقناع. ط الأولى. بيروت: دار ابن حزم.

رزق، على. (١٩٩٤). نظريات فى أساليب الإقناع. بيروت: دارالصفوة.

الزبيدى، جبّار. (۲۰۱۷م). رسائل الإمام على(عليه السلام) فى نهج البلاغة: دراسة حجاجية. ط الأولى. كربلا: مؤسسة علوم نهج البلاغة.
سارة، قطاف. (۲۰۱۵م). أدوات الإقناع البيانية فى مقامات البشير الإبراهيمى. بجاية: جامعة عبدالرحمن ميرة.
سعدون هنون، هادى. (۲۰۱۲م). التصوير الفنى فى خطب المسيرة الحسينية. ط الأولى. النجف: إصدارات العتبة العلوية المقدسة.
السيوطى، أبوالفضل جلال الدين. (۲۰۰٦م). الاتقان فى علوم القرآن. بيروت: المكتبة العصرية.
شمال حسن، محمود. (۲۰۰٦م). الصورة والإقناع. القاهرة: دار الآفاق العربية.
الشهرى، عبدالهادى بن ظافر. (۲۰۰۷م). استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية. بيروت: دارالكتب الجديدة المتحدة.
صفوت، أحمد زكى. (۱۹۹٦م). جمهرة خطب العرب. بيروت: المكتبة العلمية.
صولة، عبدالله. (۲۰۰۷م). الحجاج فى القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية. ط الثانية. القاهرة: دارالمعارف.
العبد، محمد. (۲۰۰۵م). النصّ والخطاب والإتّصال. القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب.
العزاوى، أبوبكر. (۲۰۱۰م). الخطاب والحجاج. بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة.
القرطاجنى، حازم.) ۱۹٦٦(. مناهج البلغاء وسراج الأدباء. تح: محمد الحبيب بن الخوجة. تونس: لانا.
قصاب، وليد ابراهيم. (۱۹۹۹م). البلاغة العربية-علم المعانى. دبى: دارالقلم.
الكعبى، رائد حاكم. (۲۰۱۵م). بلاغة الإقناع؛ قراءة حجاجية فى خطب الإمام الحسين(ع). رسالة ماجستير. جامعة كربلاء.
المبخوت، شكرى. (۲۰۱۰ م). الاستدلال البلاغى. بيروت: دارالكتاب الجديدة المتحدة.
المبخوت، شكرى. (۲۰۰۹م). توجيه النفى فى تعامله مع الجهات والأسوار والروابط. بيروت: دارالكتاب الجديدة المتحدة.
المبرّد. (۱۹۸۸م). الكامل فى اللغة والآداب. بيروت: مؤسسة المعارف.
المتوكل، أحمد. (۱۹۸۵م). الوظائف التداولية فى اللغة العربية. الدار البيضاء: دارالثقافة.
المرادى، أبومحمد. (۱۹۹۲م). الجنى الدانى فى حروف المعانى. تحقيق فخرالدين قباوة ومحمد نديم فاضل. بيروت: دارالكتب العلمية.
مفتاح، محمد. (۱۹۹۰م). مجهول البيان. المغرب: الدار البيضاء.
النقوى، محمدتقى. (۱۳۸۳م). مفتاح السّعادة فى شرح نهج البلاغة. تهران: قائن.